أجمل الحب

قال لي ونحن نسير في نزهتنا الصباحية:

-أجمل الحب ذاك الذي يتفيأ برضى الله.. أتلومينني لأنني أزف له البراءة والجمال وأجنبه عثرات الشباب؟

كنت في الليلة الماضية قد أفقت فجأة من نومي، وخيل الي أنني أسمع من الداخل صوتا زاجرا يشبه صوته، فأصخيت السمع ونظرت في ساعتي، لا يمكن أن يكون أخّره حتى تلك الساعة وقد قرب الفجر! فلا بد أن يكون الصوت آتيا من عند الجيران، ولكن الصوت عاد غاضبا ناهيا عاتبا، ولم أتبين الكلمات.. فنهضت مسرعة من فراشي كي أنبهه الى الوقت، وشاهدت وجه نضال محتقنا وفي وضعية المتأهب للقيام عن الكرسي.. ردّه عن غايته أمره له بالجلوس فجمد في مكانه.. كنت أفهم العذاب الذي يعانيه وأشفق عليه، ولكنني أشعر بحاجته الى الكبح قليلا في مراهقته، هذا المهر الجامح.. الحب يملي على والده بعض القسوة، انه نوع من الدفاع عنه من الأذى الذي يحيط به من مجتمعه وشلة رفاقه، ومن الميل للهوى، والملل من الدراسة.. دفاع شرس كالقطة تحمي صغارها من الأخطار التي تتهددهم.. كم عانيت في تدريس نضال! تمرّد على ما ينفعه، وشد وجذب الى واجباته.. كانت المفارقة أن الخطر عليه كامن فيه، فهو بالتالي موضوع الحب والعقاب في آن واحد..

فهم عفيف ما أريد دون أن أقول شيئا، قال له "انهض واذهب" ولما حاول الخروج دون أن يودعه، استوقفه وطلب اليه أن يتقدم منه وقبله وأردف "حتى تفهم بأنني أحبك وبأن قلبي يدمي من أجلك".. وخيل الي أنه على وشك أن تدمع عيناه، هذا الرجل الصلب القاسي اللهجة الرحيم القلب.. وأحسست بموجة تفيض في أعماقي وتخنق صدري في ذلك المكان الحساس من أسفل القصبة الهوائية وتفور حتى عيني فتغرورقان بالدمع.. عدت الى فراشي فالصبح تبلّج ولم أسمع إغلاق الباب، فنهضت مرة أخرى وكان ما حزرته.. شاهدت نضال واقفا عند الباب يمسح دمعه وعيناه مضرجتان، فطلبت منه أن يغسل وجهه ويستريح قليلا حتى لا يفوته الوقت.. جئته بكوب حليب حتى لا يذهب خاوي المعدة الى مدرسته.. وذكرت موضوعه الذي استحق عليه تقدير أستاذه.. انه فتى لامع،

فلماذا يضيع مستقبله في مرحلة يقرّر فيها مصيره حسب علامات نجاحه؟ انها تجربة حقيقية يعانيها بين طموحه ونوازعه التي لا ترحم في تلك السن الهوجاء التي تعصف فيها الغرائز.. قلت لنضال أهدئه قبل ذهابه الى المدرسة:

–ليس للإنسان سلاح من المعرفة الاّ ما يحصّله في هذه الفترة بالذات، لأنه العمر الذي لا يكون فيه مشغولا بلقمة العيش وتحصيل المال وهي التي ستخدمه طوال العمر، انتظر حتى تجتاز البكالوريا فهي تقرر مصيرك، وفي العطلة تجد الفراغ لممارسة هواياتك!

قلت لعفيف وأنا أسير:

–معك حق في كبح جماحه.. انني لاألومك، فالحياة هي هذا النضال الدائم بين الدوافع والدواعي، بين التسلق والهبوط، وأي تهاون في كبح المثبطات قد يؤدي الى الفشل الذريع.. ولكنني أتساءل أحيانا أترانا منصفين حين نقرن المعرفة التي عليه أن يحصلها بحوافزه الطبيعية؟ برغبته في أن يكون في شلة يتعرف فيها الى الجنس الآخر؟ أترانا نقدر حاجته الى نشاطات أخرى تلهب قلبه بالفرح والحماس؟ هذا ما يحس أنه ينقصه وينتقدنا عليه ويتمرد علينا أحيانا فهي ليست عبثا في تصوره..

–انه يعيش مجتمعا انفلت من التقاليد التي كانت تحمينا في سنه، واستشرى فيه الفساد، ولسنا من الوصوليين الذين يحابون وتفتح لهم ولإبنائهم الأبواب على مصراعيها ولو كانوا جهلة وحتي أميين.. الشريف ضعيف في هذا المجتمع، أظافره قصيرة، لا يقدر أن يحصّل لقمته.. وليس لأولادنا من ثروة الاّ علمهم..

عادت سينا موريا مرة أخرى الى سوريا، وكانت تنزل في فندق الشيراتون وتقابل القادة الفلسطينيين وغيرهم.. تلفنت الي ودعتني وعفيف لزيارتها في الفندق وقالت بأنها فرصة ذهبية لعفيف أن يجتمع مع الفلسطينيين ويعرف مواقفهم.. كان عفيف على كرسيه قبالة التلفزيون فغطيت السماعة وأخبرته بما تريد فأجاب قائلا "قولي لها أن لا تعاود الإتصال بنا أو رؤيتنا أبدا"..

كان ذلك عام 75 وقد بدأت الحرب الطائفية في لبنان منذ مقتل معروف سعد نائب صيدا الذي كان يكسب أصواته بتبني قضية الكادحين والفلسطينيين! ولم نر سينا موريا مرة أخرى الا بعد سنين..